

أفغانستان سويسرا آسيا ...

بقلم عبد الحميد الكاتب

« وهذا مقال آخر للأستاذ عبد الغنى المصرى ،
يصف فيه جانباً آخر من مشاهداته فى أفغانستان . »

صدق من شبه أفغانستان بسويسرا ، والحق أنه لم يسرف ولم
يتحيز حين سماها سويسرا آسيا . . فسويسرا التى يخف إليها الرياضى
الذى يهوى الانزلاق على السفوح والثلوج ، ويسعى إليها العليل الذى
يلتمس الهواء الجاف النقى ، ويأوى فيها إلى كوخ وادع على سفح
التل أو شاطئ الغدير ذلك الشاعر الذى يريد أن يسرح على أجنحة
الخيال إلى حيث يستلهم مفاتن الطبيعة ومغانى الدنيا - سويسرا
هذه ليست أكثر جمالا ولا روعة ولا فنة من أفغانستان ، حتى لكأن
الطبيعة حين أغدقت سويسرا على قارة أوربا، شاعت ألا تحرم
آسيا فأغدقت عليها أفغانستان !

فأفغانستان هى سويسرا آسيا حقا : بجبالها ووديانها ، بغاباتها
وبساتينها ، بأنهارها وبحيراتها ، بسفوحها وثلوجها ، بخيراتها وفاكهتها . . .
وكل نما هناك من فرق بين البلدين ، هو فرق الصنعة لا فرق الطبيعة ،
وفرق التجميل لا فرق الجمال ؛ ففى سويسرا أضافوا إلى الجمال الطبيعى

جمالاً صناعياً ، يبدو في فنادقها ، وبيوتها ، ومشاربها ، وملاهيها ، ووسائل
المواصلات فيها . . . أما أفغانستان فقد ألفت بها الطبيعة في مكان قصي
لا يؤمه الناس . فظلت كما فطرها الله ! دون أن تمتد إليها يد الصنعة
إلا قليلاً . . . ولو امتدت إليها فأنشأت فيها الفنادق والملاهي ، ويسرت
سبل الوصول إليها ، لرأيت كثيراً ممن يخفون اليوم إلى سويسرا يولون
وجوههم شطر أفغانستان !

وأروع ما في أفغانستان هي هذه الجبال التي تحيط بالمرء من
كل جانب . . . فأينما كان وحيثما ذهب رأى نفسه وسط حلقة من
الجبال تحيط به إحاطة السوار بالمعصم كما يقولون . . . بل حتى عندما
تتفرج الجبال بعضها عن بعض وينبسط فيما بينها واد سهل
فسيح - كذلك الوادي الذي قامت فيه مدينة كابل عاصمة
أفغانستان - تظل هناك سلسلة من الجبال الشاهقة تحيط بالمدينة
وتقوم من حولها كالسور الشاهق المنيع . . . الذي لا منفذ منه إلا بضعة
طرق ضيقة تشققت بين الجبال ، فصارت مسالك ضرب فيها الناس
على أقدامهم وفي قوافلهم قديماً ، ثم جاءت السيارات والأتوبيسات
فصارت تشق بالناس هذه المسالك الوعرة !

ولا تكتفي الجبال بأن تحيط بالمدينة من كل جانب . . . بل
في قلب المدينة ذاته يقوم جبل شاهق يفصل شمالها عن جنوبها ،
مثلاً يفصل النيل شرق القاهرة عن غربها . . . فإذا شئت أن تذهب

مناطق الطبيعة في أفغانستان



obeykandi.com

من حى إلى حى ، ولم تكن رياضيا يهوى ارتقاء الجبال وهبوط السفوح ،
فعليك أن تدور حول الجبل الأشم الشامخ الذى يتوسط المدينة

وجبال أفغانستان ليست جبلا عارية قاحلة ، ولا داكنة
كالحة - بل إن الأعشاب التى تنمو حتى تبلغ مبلغ الأشجار
تغطيها وتكسوها . . فتضفى عليها لونا أخضر ، يحمر أحيانا وبصفر
أحيانا عند انتهاء الحريف وعند مقدم الربيع . . ثم إن صخور الجبال
ذات ألوان زاهية شتى ، حتى ليخيل إليك أن يبدأ قد مرت عليها
بأصباغ حمراء وخضراء وزرقاء وسوداء وصفراء يتجاوب بعضها مع
بعض تجاوب الألوان فى لوحة الفنان . . بل أحسب لو أن رساما
رسم جبال أفغانستان كما هى ، بألوانها المتباينة المتجاوبة ، الصافية
القائمة ، لظن الناس أنه أسرف وغالى وأضفى عليها من عنده ألوانا وأصباغا . .
فما يصدق من لم ير هذه الجبال « ومن الجبال جدد بيض وحممر
مختلف ألوانها وغرايب سود » .

وقد أسرفت فى ذكر الجبال ، حتى لأخشى أن تظن أن
أفغانستان ليست إلا جبلا . . كلا . . فعلماء الجغرافيا يقولون إنه
حيثما توجد الجبال توجد الوديان ، وحيثما توجد الوديان تجر
الأنهار . . وحيثما تجر الأنهار وتتدفق المياه ، تحى الأرض الميتة ،
فتخرج الشجر والثمر ، وتأتى بالنبت والحب ! وتخضر بالعشب
والمرعى .

وهكذا أفغانستان . . وما أحسب إقليماً في العالم فيه ما في أفغانستان من البساتين الناضرة بالشجر . الحافلة بالثمر ، الكريمة بالفاكهة . . وإن شئت أن تعرف فر قليلا في أسواق كابل ، تر أكثر الدكاكين لا تباع إلا الفاكهة ، وفي كل منها أكوام من العنب والتفاح والكمثرى والخوخ والرمان والبطيخ والشمام . . ثم عرج على دكان منها فاشتر شيئا من الفاكهة ، ستقول في أول الأمر : ما أرخصها ! . . فرطل العنب أو رطل التفاح لا يساوي أكثر من قرش واحد ، والبطيخة أو الشمامة الوفيرة تشتريها بخمسة قروش أو ستة . . ثم لا تلبث أن تقول ما أحلى هذه الفاكهة وما أشهاها ! فلن تذوق أحلى من عنب أفغانستان ، ولن تأكل أشهى من بطيخها ؛ والشمام الذي قلما تعثر منه في مصر على شمامة حلوة ، لا تجد منه في أفغانستان واحدة ماسخة ! .

وستسمع بائع الفاكهة يقول لك إن في أفغانستان سبعين نوعاً من العنب . . وأظنه لا يغالي ؛ فإني أرى الفقراء هنا يأكلون العنب مع العيش مثلاً يأكل فقراؤنا الملح أو المش مع العيش . . وستجد أمام بائع الفاكهة ألواناً وأشكالا من العنب ، فمنه الأسود الداكن ، ومنه الأخضر الزاهي ، ومنه ما يكبر حتى يبلغ حجم الليمونة ، ومنه ما يصغر حتى يشبه حبات الذرة ، وكله يتساوى بعد هذا في مذاقه الحلو اللذيذ ؛ أما موسمه فطويل يمتد ثمانية شهور في السنة ،

صخور الجبال في أفغانستان ذات ألوان رائعة شديدة



obeykandi.com

ولا تحرم منه حتى عندما ينهى فصل الدفء ويطبق على أفغانستان
شتاؤها القارس الزمهرير !

ولم تغدق الطبيعة على أفغانستان فاكهتها فحسب ، بل أغدقت
عليها كثيراً من خيراتها ؛ فترى الباعة في الطرق مصطفين على الإفريز ،
يبيعون اللوز والجوز والبندق والفسق والصنوبر ، مثلما يبيعون في مصر
اللب والترمس . . . بل ترى الأطفال في الطرق يلعبون البلي ، ولكن
بليهم هو ثمار الجوز.. ! وأينما ذهبت في أرجاء أفغانستان ؛ وجدت
الأشجار الباسقة التي تحمل هذه الثمار ، نامية على جانب الطرق ،
وفي حدائق البيوت ، وفي حقول الزارعين . . . فهذه الشجرة التي تحمل
ثمرة كثمرة البرتقال ، هي شجرة « عين الحمل » ، هذه الثمرة الحميلة
التي أحاطتها الطبيعة بغلافين : غلاف أخضر كقشرة البرتقال ،
ينشق عند النضج فتخرج من جوفه هذه الثمرة التي نعرفها بغلافها
الصلب .

وهذه أشجار التوت تظللك أينما ذهبت ، وتوجد على الناس
بثمرها الحميل ، الذي طابنا تغنى الشعراء بلونه القرمزي ، وطالما ذكروه
كلما ذكروا شفاء الحسان وفتنة لونها ومذاق ريقها ولست أدري
ماذا يفعل التوت هنا بالشفاه ، فما رأيها ولا رآها أحد ممن وفد إلى
هذه البلاد . وكل ما أعرفه عن توت أفغانستان أن الناس يأكلونه
إبان مواسمه : ثم يجففونه أو يخلطونه بالجوز ، ويأكلونه طوال الشتاء .

ولعل أروع ما في طبيعة أفغانستان هذا التفاوت العجيب بين فصول السنة . . . فكل فصل فيها له مميزاته وخصائصه ؛ فصيفها لاهب الحرارة . تشتد في بعض المناطق مثلاً تشتد في صعيد مصر ، فيفر الناس من المدن إلى الريف . يلتمسون في رياضه وظلاله مأوى من القیظ والهجير . . . وشتاؤها قارس البرودة ، لا ، فإن هذه الكلمة لا تكفي لوصف برودة الشتاء في أفغانستان . حيث تمطر السماء ثلجاً يغطي الأرض بطبقة ارتفاعها بضع أقدام ، وحيث تهبط درجة الحرارة إلى العشرين تحت الصفر فيقر الناس في بيوتهم لا يكادون يغادرونها . وتعطل المدارس ، وتسد الطرق ، وينفق الناس جزءاً كبيراً من مالهم في شراء الحشب والفحم يتدفأون به ، فيبلغ ما ينفقه الرجل الثرى في تدفئة بيته ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه في السنة ، ففي كل غرفة مدفأة يسمونها « البخارى » الذى تراه في كل مكان ، في مكاتب الحكومة ، وفي دكاكين السوق ، وفي مساجد الصلاة . . . أو تشق تحت أرض الغرف مجار توقد فيها النيران وتسرى فيها الحرارة . ويتدثر الناس في الشتاء بملابس ثقيلة من ذلك الصوف النقي الذى ينسج في أفغانستان ، ويلتفون في عباءات مثل اللحاف تماماً ، فهي محشوة بالقطن . . . ولكن هذا لا يكفي في بعض المناطق الشديدة الارتفاع ، فيتدثرون بمعاطف وصدریات من فراء الأغنام ذات الشعر الطويل ، ويلبسونها حيث يكون شعرها إلى الداخل وجلدها إلى الخارج .

ولكن لا يرد زمهرير الشتاء إلا هذه النيران التي يصطلبها الناس من مغرب الشمس إلى مشرقها؛ ولهذا يقول الأفغانيون في أمثالهم « نار الشتاء خير من الله ورسوله . . وأرجو ألا تسرع فتسيء الظن بدين الأفغان . فكلمة « خير » هنا اسم وليست أفعل تفضيل ، يعنى : « نعمة من الله ورسوله ! »

ولعل هذا الشتاء القارس هو الذى يجعل كثيراً من الأفغان يدخلون المساجد ويؤدون الصلاة وهم متعلون أحذيتهم التي يسرون بها في طرق فيها من الوحل والروث أكثر مما في طرق القاهرة ؛ ولست أدري حكم الدين في هذا ، وإن كان أحد الأفغانين قد قال لى : إن أرضنا طاهرة ، لأنها طاهرة من الاستعمار الأجنبي . . . وأظنه على حق في هذا التفسير . . . هذا إلى أننى سمعت أن بعض فقهاء الإسلام يرون أن الصلاة لا تحل في الأرض التي يحكمها غير المسلم . وهذا الشتاء على برودته القارسة هو أروع فصول السنة . . . وهو الذى يجعل من أفغانستان سويسرا أخرى . . . فما يبدأ الشتاء في منتصف ديسمبر حتى يهطل الثلج من السماء . . . مثلاً يهطل المطر تماماً . . . ويظل يهطل أياماً وأسابيع متتالية حتى يغطى الأرض ، والشوارع ، وأسطح البيوت ، وأشجار الطريق . . . بل يغطى رجال البوليس الواقفين في الطريق لتنظيم المرور . . . كل هذا يغطى بالثلج الإبيض الناصع الجميل . . . ومع هذا فإن الشمس تظل

مشرقة أكثر أيام الشتاء . . وتظل سافرة ساطعة لا يكاد يحجبها غيم أو سحاب . . فإذا سرت سرت فوق طبقة عالية من الجليد ، وتحت شمس ساطعة ! .

وتشرق هذه الشمس السافرة على الجليد الأبيض ، فينعكس منه ضوء لامع يخطف البصر ، ولا يستطيع المرء أن ينظر إلى الأرض إلا من خلال نظارة سوداء تقي العين من ذلك الضوء المتألق الذي ينبعث من طبقات الجليد .

ولكن الأفغان لا يغطون أعينهم بالنظارات . . . وإنما يكتحلون . ولا سيما أهل الريف منهم . . . ذلك أن اللون الأسود يمتص الضوء الشديد ، ويبقى العين من تأثيره . . فترى الرجل الوقور ذا اللحية المرسلة وقد كحل عينيه . . أو الصبي الصغير بعينين كحيلتين تتألقان في وجه مشرب بالحمرة . . . وأما ما عدا ذلك من العيون فلم أرها !

وفي الشتاء تغطي الجبال من أعلاها إلى سفوحها بالثلوج ، فيجد فيها أولئك الأوربيون والأمريكيون الذين يعيشون هنا - وفي أفغانستان بضع مئات منهم أكثرهم من الأمريكيين الذين يعملون مدرسين ومهندسين وأطباء - ملعباً جميلاً للانزلاق . . ففي يوم الجمعة والأحد ترى أسراباً من شبانهم وفتياتهم على سفوح الجبل الذي يتوسط كابل ، يتقاذفون بكرات الثلج ، ويتسلقون الجبل أو يتدحرجون عليه ...

أما أكثر فصول السنة متعة وأوفرها خيراً ، فهو فصل الحريف ، الذى يبدأ من سبتمبر وينتهى فى نوفمبر ، وفيه يعتدل الجو ويصفو ، وتكثر الفاكهة وتحلو ؛ ولهذا ينصحك الأفغان أن تزور بلادهم فى هذا الموسم الجميل .

وكما أن الفرق بين صيف أفغانستان وشتائها كبير ، فكذلك الفارق بين ليلها ونهارها فنهارها دافئ ، وقلما تحتجب فيه الشمس وراء السحاب ، ولكن ما إن تتوارى الشمس وراء الجبال حتى يتحول هذا الدفء اللطيف إلى برد شديد يظل يزداد شدة كلما تقدم الليل . حتى إذا أقبل الصباح رأيت الماء متجمداً ، ورأيت قنوات الماء التى تشق أكثر شوارع المدينة مغطاة بطبقة من الثلج تشبه ألواح الزجاج . ثم تشرق عليه الشمس فتذيبها ، ويستمتع الناس مرة أخرى طوال النهار

بل قد تجد فرقاً كبيراً فى مكان واحد ووقت واحد ، فإذا سرت فى الظل أحسست بالبرد ، فإن انحرفت خطوة واحدة بعيداً عن الظل أحسست بالحر حتى قيل إن الفرق بين الصيف والشتاء فى أفغانستان هو خطوة واحدة !

وقد تجتمع الفصول الأربعة معاً . . . وذلك على سفوح الجبال الشاهقة . . . فى أودناها الصيف الحار الذى يتصبب منه الإنسان عرقاً . . . فإذا ارتقيت على السفح قليلاً هبطت الحرارة ورق الجو ،

فكان الربيع برياضه وزهوره . . فإذا نظرت إلى قمة الجبل رأيت الشتاء في هذه الثلوج التي تكللها طوال العام . . وهكذا يجتمع الصيف والشتاء والربيع معاً ! .

وأحسب أن هذا التفاوت الكبير في أجواء أفغانستان . . قد ولد في أجسام أهلها قوة ومنعة وصلابة . . يقاومون بها برد الشتاء وحر الصيف . . وأن هذه القوة الطبيعية في أجسامهم . . إلى جانب ما في بلادهم من الخيرات الموفرة . . هي التي تجعل الأفغانيين يعمرّون طويلاً . . وقد كان أول ما استرعى نظري عند ما دخلت أرض أفغانستان أنني رأيت أغلب الناس شيوخاً معمرين ، تتدلى على صدورهم لحى شائبة بيضاء ! ومع هذا يسرون مسرعين منتصبين كالشبان الفتيان ! وما أظن أن في العالم بلداً تكثر فيه نسبة الشيوخ إلى نسبة الشبان مثل كثرتها في أفغانستان ! وأظن أيضاً أن بلاد البلقان قد ادعت لنفسها فضلاً هو من حق أفغانستان . . فهم يزعمون أن أهل البلقان يعمرّون كثيراً . . ويقولون إن رجلاً رأى في إحدى بلاد البلقان شيخاً معمرّاً يبكي ، فسأله عن سبب بكائه ، فقال له إن أباه ضربه لأنه شتم جده . . ! وأزعم أن مثل هذا قد يحدث في أفغانستان لا في البلقان ، فمتوسط عمر الأفغانى خمس وسبعون سنة ! ولهذا لم أعجب حين رأيتهم يبيكون رجلاً مات في السبعين مثلاً نبكى في مصر من يموت في ميعة الشباب ! .

ولعل من أدلة طول العمر في أفغانستان أنها هي الدولة الوحيدة
التي اجتمع فيها الأب والابن في مجلس الوزراء ! فقد ترى في البلاد
الأخرى أبا وابناً عضوين في البرلمان ! أما في أفغانستان فقد صار
الأب وزيراً للعدل ! والابن وزيراً للمالية ! في وزارتها الحالية .

وبعد ! فأرجو أن أكون قد أبرزت بعض نواحي الجمال في
أفغانستان ! في سويسرا آسيا ! وأحسب أن المرء إذا كان قلبه
سليم النبض . ودمه عادي الضغط فلا يتأثر من ارتفاع كابل التي
تعلو على سطح البحر زهاء ألف وثمانمائة متر ! والتي تعد أعلى
عاصمة في العالم . . وإذا كان لا يعنيه كثيراً أن يحرم من تلك
الملاهي والليالي التي ألفناها ... فإنه سيرى في أفغانستان بلداً من
أجمل بلاد العالم ! بل بلداً تمر مشاهدته الرائعة أمام عينيه كما تمر
الأحلام والرؤى الحميلة في خيال الشاعر السارح . .

ولعلك بعد هذا تريد أن تزور أفغانستان . . ولكن مهلاً . .
فبينك وبينها خطر القتاد !

وخطر القتاد هنا هو ممر خيبر !

وما أدراك ما ممر خيبر ؟ ! . إن لهذا قصة أخرى أرجو أن
تقرأها قريباً ! .